

التجديد في الكتابة التاريخية

د/ يحيى محمد محمود

برنامج التاريخ

جامعة الإمارات العربية المتحدة

بدأت الكتابة التاريخية بشكل علمي عند هيرودوت (٢٦٤-٢٤١ ق.م) الذي كان أول من قام بالنقد والتمحيص، واعتمدت كتاباته على العديد من المصادر والروايات، حيث اعتمد على شهود الأحداث والمعاصرين لما يكتبه ولا يشاهده بنفسه، و كتب التاريخ بشكل نشري بسيط، واستند إلى أسس فلسفية ودينية مشتقة من الأفكار الفيثاغورية والشرقية، وضمت كتاباته الجوانب الاقتصادية إلى جوار السياسية والعسكرية والجغرافية، بل وصف أيضا عادات وتقاليد الأمم المتعددة، ليمتد بالدراسة لجوانب التاريخ الاجتماعي للشعوب، وقد تلى هيرودوت مجموعة من المؤرخين اليونانيين سارو منهجيا على طريقته في البحث التاريخي^(١).

وفي العصر الرومان تعددت كتابات المؤرخين متعددي الرؤي والمناهج، فقد كتب فابيوس بيكتور Fabius Picor الذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث ق.م. معتمدا على الوثائق، مثل قوائم هيئة كبار الكهنة، والروايات الشفوية، وكان موضوعيا في كتاباته، وتلاه مجموعة من المؤرخين الرومان مثل: اينوس Ennius الذي كتب باللاتينية في صورة قصائد خفيفة، عكس كاتو Cato (٢٣٤-١٤٩ ق.م)، الذي كتب التاريخ نثرا، وقد جاء كتابه "الأساس في التاريخ" والذي تضمن وصفا لحرب طروادة، و أصول الجماعات الإيطالية، والحرب البونية، والحروب المقدونية، والحروب الأسبانية، والتزم كاتو بقضايا الشعب الروماني واحتقر ترف الأغنياء، وقد جاء من بعده فارو Varro (١١٦-٢٧ ق.م) الذي وضع مجموعة كبيرة من المؤلفات، أهمها "مجموعة الآثار القديمة الإنسانية و الإلهية" والتي كتبها عام ٤٧ ق.م. وتناول في كتاباته التاريخ الروماني

الاجتماعي والسياسي، أما أشهر المؤرخين الرومان فكان ليفيوس Livius (٥٩ ق.م. - ١٧ م)، وقد شهد سقوط الجمهورية وقيام الإمبراطورية، وكلفه أغسطس بكتابة تاريخ جديد لروما منذ تأسيسها إلى عصره، وقد تكون كتابه من ١٤٢ جزء، كتبها بطريقة الحوليات، وهو أول من كتب التاريخ من مفهوم الحاكم وطوعه لخدمته، ربما بقصد إثارة الروح الوطنية للرومان، ولكنه في النهاية كان بداية الاستخدام البرجماتي للتاريخ لنفع الحاكم وتقدم تصوره للأحداث للناس بشكل مسلم به^(٢).

وفي العصر الإسلامي كتب العديد من المؤرخين التاريخ بشكل علمي دقيق، مثل ابن عبد الحكم (١٨٧ هـ - ٢٥٧ هـ)، الذي قسم كتابه لموضوعات وليس لحوليات، مثل فضائل مصر وتاريخها وأوصافها العامة، وفتحها والخطط التي أقامها الفاتحون، وإدارة مصر تحت قيادة عمر بن العاص وعبد الله بن سعد، واعتمد في كتابته علي المصادر المكتوبة من مخطوطات، والروايات الشفوية، ووثق بعض من مصادره، ولجأ للمقارنة بين بعض البلاد مثل مصر والمغرب^(٣). وقد كتب البلازري (١٩٥ هـ - ٢٧٩ هـ) كتابه الشهير فتوح البلدان متبعا نفس تقسيم ابن عبد الحكم، مقسما كتابه لموضوعات، ومعتمدا علي الإسناد والمحدثين والرواة، كما اعتمد علي مشاهداته ورحلاته، ووثق مصادره، كما قام بتحليل الكثير من الأخبار التي نقلها^(٤).

أما مرحلة نضوج العلوم الإسلامية في القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي فيمثلها الطبري (٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ / ٨٣٩ م - ٩٢٣ م)، وقد أراد كتابة تاريخ البشر منذ آدم حتى عصره، وقد كتبه وفقا لتقسيم حولي وليس موضوعي، وكتب اعتمادا علي الروايات وعلي قراءاته، وقد استخدم الآداب واللغة والشعر والسير كمصدر للتاريخ، كما ارتحل للعديد من البلاد من أجل الكتابة عنها^(٥).

ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م)

يعتبر ابن خلدون أعظم المؤرخين المسلمين، وقد عاش في مرحلة بداية التفكك، وشهد سقوط الأندلس، وانتقل منها لتونس، وهو فيلسوف، وعالم اجتماع، ومؤرخ، وهو أول من كتب في منهجية التاريخ بشكل كبير وواضح، فقد دعا إلي عدم النقل دون

نقد وفحص و تحليل، وانتقد المؤرخين الذين يكتبون أحداثا و أخبارا تتناقض مع قانون المطابقة، وتخالف الواقع والموضوعية، وذكر بعض الموضوعات اللامنتطقية في كتابات المسعودي علي سبيل المثال، وقد حدد ابن خلدون بعض العلوم المساعدة اللازمة للمؤرخين، منها معرفة قواعد السياسة، وطبائع الموجودات، والجغرافية والاجتماع، وضرورة تميز المؤرخين بامتلاك القدرة علي المقارنة بين أحوال الحاضر و أحداث الماضي، ومعرفة أسباب نشوء الدول ومظاهرها. كما ألزم المؤرخ بألا يتسرع في الكتابة، أو الاختصار، أو التكرار، و أن عليه أن يتحقق من أسباب نشأة الدول و أحوالها والظروف المحيطة بنشأتها، وليس الاكتفاء بذكر أسماء الملوك والأمراء، و حدد هدفا للتاريخ بالإجابة علي ما جري ويجري من أحداث وتطورات^(٦)، وبهذا يعد ابن خلدون أول من كتب في منهج البحث التاريخي من المؤرخين.

ولم يتبع كل معاصرو ابن خلدون منهجه، فقد أعجب بنظرياته وآرائه العديد من أبناء عصره مثل: المقرئ (٧٦٦-٨٤٥هـ/١٣٦٥م)، وابن تغري بردي (٨١٣-٨٧٤هـ/١٤١٠-١٤٧٠م)، والقلقشندي (٧٥٦-٨٢١هـ/١٣٥٥-١٤١٨م)، علي حين عارض منهجه الكثير من المؤرخين البارزين مثل: ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ/١٣٧٢-١٤٤٩م)، وبدر الدين العيني (٧٦٢-٨٥٥هـ/١٣٦٠-١٤٥١م)^(٧).

وفي العصور الحديثة بدأ المؤرخون في الاهتمام بمنهج البحث التاريخي وقواعده المنهجية بشكل قليل في البداية، فقد كتب أسد رستم كتابا لطلاب الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٣٩م؛ حيث كان يدرس منهج البحث التاريخي للطلاب^(٨)، كما كتب الدكتور حسن عثمان أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة كتابه الواسع الانتشار والذي أعيد طبعاته أكثر من مرة " منهج البحث التاريخي"^(٩)، وقد صدرت عدة كتابات في منهج البحث التاريخي، بعضها بهدف التدريس لطلاب التاريخ، والبعض الآخر بهدف دراسة بعض أساليب التأريخ في فترات معينة، مثل: المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر^(١٠)، أو التاسع عشر^(١١) أو العصر العثماني^(١٢)، أو التعريف باتجاهات معينة في الدراسات التاريخية مثل: كتاب فردريك أنجلز، التفسير الاشتراكي للتاريخ، والذي ترجمه

راشد البراوي^(١٣)، وكتاب جفري باركلو عن الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية والذي اهتم بتقديم بعض الاتجاهات الحديثة في أعقاب الحرب العالمية الثانية مثل: التاريخ المقارن، والتاريخ القومي والإقليمي وتاريخ العالم^(١٤).

وقد جاءت العديد من الكتابات في منهج البحث التاريخي بهدف تعريف الدارسين للتاريخ والباحثين بقواعد الكتابة التاريخية، وهناك قائمة طويلة من الكتابات العلمية في هذا الاتجاه^(١٥)، وهناك مجموعة من الكتابات التي ظهرت لتحمل لدارسي التاريخ خبرة الكاتب التي اكتسبها خلال سنوات البحث ومناقشة البحوث، وحرصت علي التكوين الفكري للباحث بالدرجة الأولى وإكساب الباحث القدرة علي التفكير العلمي، والتحليل التاريخي، بوصفها الأدوات اللازمة للمؤرخ بالدرجة الأولى^(١٦).

وقد شهدت المكتبة العربية أيضا صدور العديد من الترجمات للعديد من الكتب في منهج البحث التاريخي، من أهمها ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي لكتاب النقد التاريخي، والواقع أن عبد الحمن بدوي ليس مترجما عاديا، ولكنه مفكر وكاتب عربي كبير، وقد انتقي عدة نصوص ليضمها في كتاب واحد لتؤدي الغرض المطلوب من الكتاب، وهو إمداد الباحث في التاريخ بالأدوات اللازمة له لدراسة وكتابة وفهم التاريخ، فضم الكتاب ترجمة لكتاب شارل فكتور وشارل سنيوبوس "المدخل إلي الدراسات التاريخية"، وهو كتاب دقيق في النقد التاريخي، قال مؤلفاه أن هدفهما من كتابته هو البحث في شروط المعرفة في التاريخ وعلاماتها وخصائصها وحدودها، ثم ترجم نصا آخر لباول بعنوان "نقد النص"، ليستكمل عناصر الكتاب، ثم زوده بمجموعة من الملاحق تضم نصا "لكنت" عن "التاريخ العام بالمعني العالمي"، و نصا آخر "لديكارت" مأخوذا عن "مقال في المنهج"، وهكذا تكتمل عناصر النقد التاريخي كما رآها بدوي من خلال تلك المجموعة من الكتابات المختلفة^(١٧). وقد شهدت المكتبة العربية بعد ذلك مجموعة أخرى من الترجمات التي اهتمت بالتكوين الفكري للباحث، والتفسير المختلف للتاريخ^(١٨)، أو لنقد الأسلوب الغربي في كتابة التاريخ^(١٩).

وقد عاجلت كل تلك الكتابات وغيرها طريقة الكاتب في التفكير

والتفسير، وغيرها من مهارات البحث، و أجمع معظمها علي تقسيم البحث إلي فصول و أبواب و حدد قواعد للكتابة ظلت هي المستخدمة في الكتابة التاريخية لفترة طويلة، ولكن هل يمكن تخطيط هذا الشكل في الكتابة؟ هل يمكن كتابة دراسة تاريخية علمية دقيقة تلتزم بالبحث العلمي وقواعده دون تقسيم البحث لفصول و أبواب بالشكل التقليدي؟ هذا هو ما سنتناوله بالتفصيل.

الكتابة الروائية للتاريخ

ظهرت في جامعة برنستون بولاية نيو جيرسي الأمريكية مدرسة جديدة منذ سنوات تستخدم الطريقة الروائية في كتابة تاريخ الشرق الأوسط وتدرسه للطلاب، وهي طريقة علمية تقوم علي كتابة التاريخ في شكل قصة جذابة للقارئ، ولكنها ليست كالقصة التاريخية التي نعرفها من خلال أعمال نجيب محفوظ وغيره من كتاب القصة التاريخية، ولكنها كتابة للتاريخ بشكله العلمي الأكاديمي الدقيق.

وإذا كان العرب قد عرفوا من خلال أحاديث المولحي، ومذكرات علي مبارك شكلا مشابها؛ إلا أن ذلك الأسلوب وتلك الطريقة تختلف عند مدرسة برنستون عن الطريقة العربية.

ويمثل تلك الطريقة عدد من المؤرخين الأكاديميين الذين درسوا، ويدرسوا تاريخ الشرق الأوسط بتلك الجامعة، وأبرزهم د.روي متحدة في كتابه بردة النبي The Mantle of the prophet^(٢٠).

ويبدأ التجديد في تلك الدراسات باتخاذ عنوان جذاب بشكل رئيسي يتبعه عنوان فرعي يبين الموضوع الدقيق لتلك الدراسة، مثال ذلك كتاب د. كينيث كونو وكان موضوعا لأطروحته للدكتوراه بعنوان "فلاحوا الباشا" Pacha'speasant، ويلي ذلك التحديد الدقيق "الأرض والفلاح في الدلتا في القرن السابع عشر"^(٢١). كذلك كتاب د.خالد فهمي الذي يحمل عنوانا رئيسيا "كل رجال الباشا" All pasha's men وعنوان دقيق لأطروحته أيضا "الجيش في عصر محمد علي"^(٢٢). كذلك كتاب روي متحدة "بردة النبي" العنوان الرئيسي ثم العنوان العلمي "الدين والسياسة في إيران"^(٢٣).

وستركز الورقة علي كتاب د.روي متحدة "بردة النبي، الدين والسياسة في إيران" باعتباره من كتب بتلك الطريقة.

الكاتب روي متحدة

الكتاب: بردة النبي، الدين والسياسة في إيران.

الكاتب: روي متحدة أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة برنستون، تمتلك أسرته شركة للصناعات الخزفية ذات المزاج الفني، زار إيطاليا بفننها وأعجب بغاريالدي محقق وحدها، وتأثر بجوها الساحر، فجاء تأريخه مزجا بين الفن في الكتابة والعلمية في التأريخ . يلاحظ من عنوان الكتاب "بردة النبي" الطريقة الأمريكية التي تشبه الهامبرجر في اجتذاب الطلاب أو القراء، فلا يبدأ اسم الكتاب بالموضوع ولكن له اسم تجاري في تعرضه للحديث حول الدين ورجال الدين وثورتهم في إيران وهو موضوع التاريخ الحديث والمعاصر لإيران، وهنا يقصد المؤلف أن رجال الدين في إيران قد لبسوا عباءة النبي ﷺ وأنهم قد أصبحوا يمثلونه في حديثهم إلى العامة، وهو ما يبرر منذ البداية أهمية رجال الدين في إيران، وهو الأساس الأول للحديث الذي سيتناوله المؤلف في كتابه ، وهو الموضوع الأساسي في رأيه في تاريخ إيران الحديث، ألا وهو الدين والسياسة في إيران.

كانت دوافع الكاتب لكتابة هذا الكتاب- كما ذكر - هو ما لاحظته أن الطلاب لا يعرفون ماذا يجري في إيران، لا يعرفون الثورة في الفكر الشيعي في القرن التاسع عشر، وأنها كانت ثورة قديمة قدم طبقة رجال الدين الشيعة^(٢٤).

بعد السنوات الأولى لقيام الثورة الإيرانية لاحظ الكاتب أن الكثير من الناس داخل إيران وخارجها لا يعرفون ماذا يجري، حدثت ثورتان بقيادة رجال الدين، يمتد ذلك بالوعي في ذاكرة المواطنين، ولكن في فكر النخبة حوالي ١٥٠ عاما، حين تبلورت المحوزات العلمية في النجف وقم، وأفضت تطورات الـ ١٥٠ سنة الأخيرة أن أصبحت تلك المحوزة العلمية في المقدمة.

يحاول الكتاب وفقا لرؤية المؤلف أن يروي قصة النخبة، كيف استطاعت أن تقود ثورة تبدو كبيرة التأثير ليس علي إيران فقط ولكن علي العالم الإسلامي.

أراد المؤلف أن يقرأ قراءة متعمقة لهذا التناقض الظاهري للعرفانية الإسلامية التي بدأت لدي ابن سينا والسهوروردي، وهذه العرفانية ذات التأثير الكبير أحدها ما يبدو شعرا دنيويا مثل عمر الخيام، والتيار الفقهي الأصولي الذي يبدو فيه الالتزام بالنص والعقلانية الإيرانية، وإيران هي هذا وذاك وليس واحد منهما، فهي الدينية والدنيوية.

إيران في البداية هل هي الحسين (الشهيد)؟ أم رستم؟ (بطل الوطنية الشاهانية الإيرانية)، ما هي الشخصية الإيرانية؟^(٢٥).

يري روي أن الشخصية الإيرانية تتضمن هذين البعدين، التقديس المعروف عند الشيعة، وهذا البعد الوطني البطولي في الوقت نفسه.

يدور الكتاب بشكل علمي حول السيرة الذاتية لأحد الملالي الإيرانيين - كلمة ملا تحريفا لكلمة عربية هي كلمة مولى - وقد تلقى تعليما دينيا في قم، ولكنه أثر وهو أحد أبناء آيات الله أن يهاجر لأمريكا، وهو يقرأ معنا وبشكل نقدي تجربة رجال الدين في إيران^(٢٦).

يبدأ الكتاب بالشيخ علي هاشمي^(٢٧) أحد رجال الدين في إيران الذي يفتح المذيع ليسمع نبأ سقوط الشاه، فيسرع بارتداء عباءته ويقطع الطريق إلى المسجد في قم، وفي طريقه يتذكر طفولته، تعليمه، ما مر به من تجارب، ما وقع في إيران من أحداث، ما دار في تاريخ بلاده خلال الـ ١٥٠ سنة الأخيرة، ما يعرفه من معلومات عن إيران والعالم الإسلامي.

يصف لنا من خلال ذكريات علي هاشمي التعليم الروحي والعلمي الذي يتعلمه رجال الدين في إيران، وكيف تحولت قم من مؤسسة دينية لتخريج المتفقيين، إلى مؤسسة للإطاحة بالشاه، ومن خلال هذه الشخصية تدخل آلاف التفاصيل إلى نسيج حياة هذه الشخصية، بشكل مشوق للقارئ تمكنه ببساطة من قراءة تاريخ إيران الحديث والمعاصر^(٢٨).

ويعرض لنا من خلال علي هاشمي العديد من القضايا الأساسية في تاريخ إيران الوسيط، وفي عرضه لا يدخل لدقائق الأمور ولا التفاصيل الصغيرة، ولكنه يعرض القضايا الكلية، فيبين لنا من خلال هذا العرض التاريخي أنه هناك تواصل كبير في التراث

الإسلامي، فابن سينا الذي لم يغادر الهضبة الإيرانية كتب باللغة العربية؛ حيث سار التعريب في إيران أسرع منه عن باقي مناطق العالم، بينما كتب الغزالي بالعربية والفارسية، والفرس يحتفلون بهما معاً، هذا شكل من أشكال التواصل بين الثقافة الإسلامية بشقيها العربي والفارسي، أما القومية في إيران فكان لها التأثير السلبي الكبير في الفصل بين الثقافتين الإسلامية العربية والفارسية^(٢٩).

ويبرر تحول إيران من اللغة العربية إلى الفارسية مرة أخرى إلى ما بذله المغول من جهد و من بعدهم الصفويين في تكريس اللغة الفارسية، ومن بعدها المذهب الشيعي للفصل بين إيران وباقي العالم العربي؛ مما يمكنهم من الانفراد بحكمها لتنافرها مع باقي العالم الإسلامي.

ويوضح لنا شخصية رجل الدين من خلال علي هاشمي، فيقرأ البعد الثقافي والديني والوطني للشخصية الإيرانية، وكيف تركبت في النصف الأخير من القرن العشرين، كيف بنت الحوزة العلمية في قم، وهي المدينة الجرداء عديمة القيمة، فاستخدم رجال الدين ضريحاً للسيدة فاطمة المعصومة بنت الإمام موسي الكاظم، وهو قبر مجهول لا يزوره أحد، وحولوه إلى مزار شيعي بعد أن ظل مجهولاً لمدة قرنين من الزمان فبدأ بناءه سنة ١٥٣٩م، وتم ترميمه والانهاء منه بشكله الحالي عام ١٨٤٧م، وهكذا تمكنوا من نقل الحوزة العلمية إليها رغم أن أصلها في النجف، ووضح لنا طبيعة تعليم رجال الدين فيها، الذي يبدأ بالبلاغة والنحو والمنطق، مثل الدراسات الكلاسيكية والتي تبدأ بها دراسات الملاي الفقهاء والكلامية، ثم علاقتهم بالمجتمع والسلطة التي لا تغلب عليها الأبعاد اللاهوتية قدر الوظيفية، حيث يشغلهم الخمس الذي يذهب إلى أحد المراجع الدينية، هذه الهرمية ارتبطت بالبعد الاقتصادي ثم الوظيفة الاجتماعية، وتغذت بالاستقلال أو الانفصال الذي حققه المغول ثم الصفويين في فصل إيران عن العالم الإسلامي^(٣٠).

ورغم أن علي هاشم الشخصية المحورية في بردة النبي كان شيعياً إيرانياً، إلا أن روي لم يفته نقد المذهب الشيعي نفسه مذهب علي هاشمي، فهو أولاً يشرح المذهب بكل فلسفته وتفاصيله الدقيقة، شرح عالم في الدين والمذهب، ولكنه ينتقد احتفالات عاشوراء

عند الصفويين الذين أدخلوها بشكلها الدموي، ويربط بين احتفالات عاشوراء وآلام المسيح، حيث ظهر جالدوا الذات في أوروبا في العصور الوسطى الذين انتحبوا علي صلب يسوع وآلامه، وربط بين لوحات مشهد صلب المسيح التي تجريها بعض الطوائف المسيحية في نيو مكسيكو، وبين احتفالات عاشوراء، وهنا يبرز تأثير الكاتب بالفكر الغربي البرالي، وأنه لا يؤرخ للسيرة لذاته لصديقه أستاذ الشريعة الإسلامية الشيعي المذهب، ولكنه ليس إلا إطار يقدم من خلاله تحليلاته ورؤيته لإحتفالات عاشوراء علي أنها آلام المسيح^(٣١).

ويتناول الكاتب كيف سقطت الأسرة القاجارية (١٧٩٥-١٩٢١) بعد سقوط آخر حكامها الشاه أحمد، وكيف نصب رضا خان قائد حامية طهران نفسه شاهًا باسم رضا بهلوي، والبهلوية هي لغة إيران قبل الإسلام، وهو بهذا يربط حكمه بإيران الساسانية، وعصور ما قبل الإسلام، كما لو كان امتدادا طبيعيا لهذه السلالة الساسانية في محاولة منه لكسب الشرعية، وإصباح الوطنية علي وضعه، حيث أنه من أصل متواضع بسيط لا يؤهله لتولي عرش الشاهانية، ويوضح لنا د. روي كيف لقي الشاه رضا خان مصيره وعزل من عرشه سنة ١٩٤١م، لتعاونه مع الألمان، ونفي من البلاد حتى توفي في منفاه عام ١٩٤٤م. يتمكن الكاتب باستخدام هذا الأسلوب من تحليل بعض التجارب التاريخية كما تري الشخصيات التي اختارها، وكما يري هو في ذات الوقت، مثال ذلك تحليله لتجربة مصدق وكيف حظي كشخصية قومية باهتمام المجتمع، ولكن لماذا لقي هذا المصير وفشل، يبرر الكاتب ذلك بتأميم مصدق للنفط وهو ما أدي لخلق حالة من العداء البريطاني لمصدق، ولكن كل ذلك لم يؤدي إلي سقوطه في نظره، ولكن جاء العامل الأساسي لسقوطه من طبقة رجال الدين التي تحالفت مع التجار ضده وهو ما أدي لسقوطه^(٣٢).

ويشرح المؤلف من خلال ذكريات علي هاشمي رحلة آية الله الخميني من قم وحتى سقوط الشاه، وكيف خرج الخميني من الظل إلي النور سنة ١٩٦٣ في أعقاب إلقائه خطبة نارية في ذكرى مرور أربعين يوما علي اقتحام الشرطة لمدرسة الفيضية وقتلها طالبين والتعدي علي باقي الطلاب، وهاجم الشاه نفسه في خطبة عاشوراء، واتهمه

بمحاربة الملالي والدين، ونصحه متهمًا بأن يكف عن التصرفات التي يملئها عليه الأجانب، وإلا فسيلقي مصير والده، وقد نفى إلي تركيا قبل أن يمر عام علي تلك الخطبة، ومنها انتقل إلي النجف للتدريس، ووصف لنا دروسه في فقه المعاملات بالنجف، وتجمع الطلاب من حوله، وهنا نسمع خطب الخميني ودروسه^(٣٣)، راسما سيناريو للأحداث تنقل القارئ من قم إلي النجف، ومن خطب سياسية إلي دروس في فقه المعاملات، وتحول الخميني من شخصية علي الورق إلي شخصية حية، يتفاعل معها القارئ، ليفهم أحداث تاريخ إيران المعاصر ببساطة شديدة.

ويشرح من خلال ذكريات علي هاشمي التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين ١٩٠٦ وعام ١٩٧٩م، حيث شهدت البلاد الثورة الدستورية في ١٩٠٦ بينما شهدت ما وصفه بالردة الدستورية سنة ١٩٧٩م، وبنيت علي فكرة دينية يسودها الملالي وليس رجال السياسة، وهو ما تحاول النخبة الدينية أن تحقق من خلالها السلطة لنفسها، لأنها تتجاهل البعد المدني للشخصية الإسلامية.

ويرسم الكاتب بمنتهى الدقة ما يحدث في البيت الإيراني، موضحا الحياة الاجتماعية للأسرة الإيرانية المعاصرة، ويقدم وصفا دقيقا لحياة السادة من سلالة آل البيت في إيران، وهو ما يجذب الطالب الغربي الذي لا يعرف الكثير عن الحياة الاجتماعية في الشرق الأوسط وفي إيران بشكل خاص، فيبدأ بالتكوين المعماري للبيت، وتوزع أماكن الإقامة داخله، واستقبال أهل البيت للضيوف^(٣٤)، والعلاقة بين عامة المجتمع ورجال الدين، والتجار ورجال الدين في قم، ولكنه يرسم صورة بيوت السادة من أهل البيت الذين ينحدر منهم د. زكريا موسوي صديق الكاتب الذي تأثر به، بينما لم يعيش الكاتب مطلقا في إيران التي يصورها بكل تلك الدقة، وقد ساعده علي هذا التصوير استخدامه للأسلوب الروائي، فجاءت الكتابة كما لو كانت عرضا واقعيا للحياة في إيران، يتلقاها القارئ بسهولة ويسر.

وإذا كان الكاتب قد استخدم اسما مستعارا لعلي هاشمي إلا انه استخدم بعض الشخصيات باسمها الحقيقي، وكتب علي لسانها، مثال ذلك عيسي صديق المؤرخ الإيراني

الكبير الذي عاش في بداية القرن العشرين، وهو شخصية غير معاصرة للكاتب ولكنه يستخدمه كما لو كان معاصرا يقص علينا قصة تجربته من حيث النشأة والتعلم في المدرسة الثانوية في فرساي سنة ١٩١١، والتحاقه بجامعة السربون للدراسة، وتنقله في الوظائف المختلفة حيث عمل مدرسا للغة الفارسية في جامعة كمبردج، ولقائه بالمفكرين الأوروبيين مثل برتراند رسل، وهو ما حفزه لمحاولة تأسيس جامعة حديثة في إيران، وتدرج في مناصب التعليم بعد عودته، ولكنه عاد لدراسة الدكتوراه في أمريكا عام ١٩٣١م، وكتب مذكراته عن تلك الرحلة بعنوان عام في أمريكا، وتولي رئاسة جامعة طهران، وأصبح وزيرا للتربية والتعليم في ست حكومات متتالية، ينقل روي تلك المعلومات لنا علي لسان عيسي صديق كما لو كان هو المتحدث إلينا، أو كما لو كان عيسي صديق يكتب سيرته الذاتية وتجربته الخاصة، وكما لو كان يؤرخ لحياة عيسي صديق، والقارئ المصاحب له يتنقل مع عيسي صديق من إيران لفرنسا لكمبردج لجامعة طهران، ووزارة التربية والتعليم ويرى كيف تم إدخال التعليم الحديث لإيران ببساطة شديدة^(٣٥).

ويشرح روي العلاقة بين رجال الدين والحكم، والعلاقة بين الملالي وبين كبار التجار، وهو ما أدى إلي التزاوج بين المصلحتين في عهد رضا شاه، ولكن تحول التجار إلي مساندة الخميني للعودة إلي الحكم بعد أن تباعدت المسافة بين مصالحهم ومصالح الشاه محمد رضا بهلوي، الذي بدأ ما يعرف بالثورة البيضاء عام ١٩٦٣م، وأصبح يعتمد علي السافاك وأجهزته وما أحرزه من مكانة نتيجة لثورته تلك، هنا انفض التحالف، وآزر رجال البازار آية الله الخميني حتى هرب الشاه في ١٦ يناير سنة ١٩٧٩م خارج البلاد، علي أمل العودة إليها مرة أخرى كما حدث مع مصدق ولكنها كانت النهاية^(٣٦).

ويعتمد أسلوب الكاتب علي الربط بين الأدب والتاريخ، وهي علاقة قديمة، ففي البداية كان التاريخ أسطورة يحكي التاريخ من خلالها، إلي أن تم الفصل بين الاثنين في القرن الثامن عشر، وفي القرن العشرين حين ظهر التركيز علي التاريخ الشفاهي، بدأ الاهتمام بقيام المؤلف بتأويل الروايات. والمؤرخ في حالتنا أديب، وكل مؤرخ أديب، وكل كتابة تاريخية هي محاولة لتنظيم المكتبة الوثائقية بشكل سردي يحاول من خلاله

الوصول للحقيقة، الأديب يكتب ما هو زعم، يعتمد علي عدة معاني يحتمل تأويلات عدة والقارئ غير مهتم، ولكنه يصدق قدر تأثيره بالنص، أما المؤرخ فهو يكتب التاريخ بشكل أدبي محولا تصوير ما يعتقد أنه حقيقة، عكس الأديب الأكثر خطأ في تقديم الواقع.

وقد استخدم روي عدة تقنيات في كتابته للتاريخ، استخدم ذكريات علي هاشمي ليعرض لنا شذرات من الزمن التراكمي، نفهم منها الحقيقة، علي أنها ليست واحدة ولكنها رؤي مختلفة، ومن خلال هذه الشذرات يقدم لنا ما يلزمنا للتعرف علي تاريخ إيران، معلومات ضرورية عن الحضارة العربية الإسلامية، بعضها عن ابن رشد، وبعضها عن السهروردي، وبعضها عن الغزالي، وساعده هذا الشكل من أشكال الكتابة في تقديم عدة رؤي للحدث التاريخي، فهو يعرض علي لسان علي هاشمي وذكرياته رؤي رجال الدين للقضايا، ويعرض علي لسانه رؤيته كمؤرخ، ويعرض علي لسان كل شخصية رؤيتها للحقيقة، فقد ساعد ذلك الشكل الروائي المؤرخ علي عرض كل الرؤي للموقف الواحد من مختلف وجهات النظر، مع الحفاظ علي علميته، وبشكل لا يدع للقارئ فرصة للملل.

حطم المؤلف الشكل النمطي للزمن، والشكل النمطي للأماكن مثل الرواية، وتعددت الشخصيات فهو يبدأ بعلي هاشمي، ويتوقف عدة فصول كما لو كان قد نسيه، ثم يعود إليه مرة أخرى، وحين يستخدمه ليعرض وجهة نظر الملاي، وحين يتركه ليعرض وجهة نظره هو، أو وجهة نظر شخصيات أخرى للحدث التاريخي، ولكن تلك الشخصيات حقيقية في كل الأحوال، وهو ما يترك للقارئ فرصة للاستماع لشخصيات تاريخ إيران الحديث تتحدث إليه من وجهة نظرها، وللمؤرخ ليحلل تصرفاتها ببساطة، ولكن الأحداث كلها حقيقية وموثقة توثيقا تاما وبكل دقة المؤرخ، فهو لا يخلق حدثا، ولا يقدم واقعة تاريخية غير حقيقية، أو غير موثقة.

استخدم الكاتب التراث العربي الإسلامي بشكل كامل من خلال شاهد، راوي، يقص علينا الكثير من ذلك التراث، فيقدم لنا عدة روايات تاريخية مدعمة بالوثائق، ولكن من خلال وجهة نظره، وبهذا يقدم لقارئه وهو الطالب الدارس لتاريخ الشرق الأوسط بانوراما تاريخية يتعرف من خلالها علي ابن سينا والغزالي والسهروردي، وغيرهم، ويفهم

من خلالها الجذور التاريخية لتاريخ إيران الحديث والمعاصر موضوع كتابه والمنهج الدراسي الذي يدرسه لهم.

استخدم الكاتب مجازا خاصا واحدا خلال كتابه من أوله لآخره وهو الحقيقة الإيرانية الموجودة في المنزل الإيراني، والتي تفصل بين أماكن الزوار وأهل المنزل، باعتباره النمط الإيراني لأسرة السادة، وهو يزرع حقيقته وتزدهر في عصر الازدهار وتموت أشجارها في عصور الاضمحلال.

ومن خلال تعليم علي هاشمي يوضح لنا رغبة الملالي في اتباع التعليم الحديث، ورفضهم له، والثقافة التي تغذيها الحكم والشعر الصوفي.

وفي نهاية الكتاب يقيم الكاتب الثورة الإسلامية في إيران، ويرى أن إيران قد استبدلت استبدادا باستبداد، وأن الحل الوحيد هو أن يتم التجديد من داخل نفس النخبة وهي طبقة الملالي، وأن يظل علي هاشمي لابسا بردة النبي وأن يأتي التجديد من داخل النص وليس من خارجه من داخل طبقة رجال الدين وليس من خارجها، لأن أي محاولة للتغيير من خارج تلك الطبقة ستفشل في النهاية.

هل يمكن أن نعتبر "بردة النبي" كتاب تاريخي بالمعنى العلمي، أم أنه عمل أدبي شأنه شأن سمرقند لأمين معلوف وباقي القصص التاريخية؟ وهل يمكن استخدام أسلوب روي متحدة في الكتابة بشكل روائي كمنهج علمي؟.

في الحقيقة لا يمكن اعتبار "بردة النبي" قصة تاريخية، ولكنه عمل علمي، كتبه مؤرخ متخصص، ويدرسه في جامعة لطلاب متخصصين، اتبع القواعد العلمية للكتابة التاريخية، واستخدم منهج البحث التاريخي، فهو لم يخلق شخصيات لا وجود تاريخي لها، كما لم يحرف في أي حدث تاريخي، ولا زمان لأي واقعة تاريخية تحدث عنها، ولكنه كان أميناً كل الأمانة في عرضه وتحليله لتاريخ إيران الحديث، ولكنه استخدم الأسلوب الروائي والقالب الروائي، كقالب فقط يصوغ من خلاله تحليلاته العلمية، وآرائه الشخصية، وآراء المشاركين في الأحداث من خلال سيناريو جميل، ليعرض من خلاله تاريخاً علمياً دقيقاً لإيران، ساعده علي تقديم تحليل علمي للأحداث من زوايا متعددة.

كان المؤرخ يعرف لمن يكتب هذا التاريخ، فهو يكتبه لطلاب لا يعرفون الكثير عن إيران قديماً أو حديثاً، لذلك رجع إلى العصور الإسلامية في أكثر من موضع ليقدّم لهم العديد من الجوانب التي يري أنها ضرورية لفهم التاريخ الحديث، وليصف مظاهر النهضة الإسلامية في فارس، وليطلعهم علي علماء فارس المسلمين مثل ابن سينا والغزالي وابن الرومي وعمر الخيام وغيرهم، من أعلام نهضة إيران في عصر ازدهارها الإسلامي، كما قام بتقديم بعض المعلومات الأولية عن الإسلام مثل عدد الصلوات و أماكن الصلاة، ووصف لصلاة الجمعة، وهي معلومات عادية للقارئ المسلم يعرفها ببساطة ولكن يجب تقديمها للأجنبي الذي لا يعرف شيئاً عن الإسلام وشعائره، موضحاً الدور الذي تلعبه خطبة الجمعة في المجتمع الإيراني كوسيلة وحيدة للتعبير عن الرأي والمنتفس الوحيد الذي يمكن مهاجمة الحكومة من خلاله، والذي يتحكم فيه رجال الدين وحدهم^(٢٧).

ساعد هذا القالب الروائي الكاتب في عرض وجهات نظر كافة طبقات المجتمع، والمشاركين في الأحداث، علاوة علي تحليلاته هو وآرائه الخاصة، دون الدخول في التفاصيل الدقيقة، ودون الخوض في الأحداث الفرعية التي لا تهم الطالب ولكن لكي يصل به إلي نتائج تساعد علي فهم تاريخ إيران الحديث.

الخاتمة

لقد جاء التجديد في برنستون في محورين، الأول: بدأ باختيار عنوان جذاب للكتاب، ثم عنوان فرعي دقيق للمحتوي العلمي للكتاب، والثاني: في شكل الكتابة علي شكل رواية مقسمة إلي فصول، واستخدم الكاتب مجموعة من الشخصيات، بعضها حقيقي يعرفه، وبعضها من شخصيات التاريخ نفسه، حيث يقدم من خلال تلك الشخصيات المتعددة والمختلفة في رؤيتها للأحداث والأمور تحليلاته للتاريخ، وجاء الكتاب مليئاً بالتحليلات، وعرض الحقيقة من مختلف الجهات ليثبت أن الحقيقة نسبية يمكن رؤيتها من أكثر من زاوية، وهو ما يمكن طلابه الذين يكتب لهم من التعرف علي وجهات نظر جميع الأطراف، وليس أحادية الفكرة التي يقتنع بها الأستاذ.

ورغم تعدد شخصيات الكاتب إلا أنه لم يخلق أي حدث، ولكنه كتب تاريخاً

دقيقاً موثقاً، واتباع كل القواعد المنهجية في كتابة التاريخ، مما يجعل من كتابه بحثاً تاريخياً علمياً، تمت صياغته في ذلك قالب الروائي، وليس رواية أدبية وفقاً لقواعد الرواية التي يعرفها القصاصون، ويلتزم بها النقاد، والمشتغلين بالأدب، ولكنها تاريخاً علمياً وفقاً لقواعد البحث العلمي التاريخي.

أما أهم ما قدمه روي متحدة فهو هذا الأسلوب الجذاب الذي يمسك القارئ منذ البداية وحتى النهاية، فهو يدفع تلاميذه الغربيين للتعرف على تاريخ إيران بشكل جذاب، ولكن هذا الشكل لم يفقده علميته، ولكنه ربط القارئ والطالب بالمحتوي العلمي الذي أرد أن يقدمه له، ولكن دون أن يمل أو يفقد اهتمامه بالموضوع.

ويثبت الكتاب من جديد فكرة تم دحضها في العديد من الكتابات عن المؤرخ المحاييد الجالس على منصة القضاء والمتجرد من كل ميول شخصية، أو ولكنه هنا يتأثر ببيئته، بل وشخصية أصدقائه، فيتمصص شخصية صديقه أستاذ الشريعة الإسلامية بذات الجامعة، ويتخذ منه بطلاً لموضوعه، وينقل على لسانه رؤية رجال الدين لقضايا وطنهم، ولكنه لم يقع أسيراً لصديقه طوال الكتاب، ولكنه كان يتركه فصولاً طويلة من الكتاب، ينصرف خلالها ليستنطق شخصيات التاريخ، ويحلل اتجاهاتها، ويعلق عليها، وليعود مرة ثانية لصديقه علي هاشمي حين يريد العودة لرجال الدين الفاعل الأساسي في تاريخ إيران.

لم يكتف المؤرخ بالتأريخ لتاريخ إيران، ولكنه تجاوزه في النهاية لتقدم توقعه لمشكلات إيران ووسيلة حلها، وذلك بتوقعه ألا يتغير الأمر إلا من داخل طبقة الملالي نفسها، وليس من خارجها فهي الفاعل المؤثر على المسرح دون غيرها ولا أمل لإيران في التغير دون أن يأتي ذلك التغير من داخل تلك الطبقة.

لقد جدد د. روي متحدة في شكل الكتابة متبع أسلوباً علمياً في قالب روائي فحول التاريخ لمتعة للقارئ، ولكنه حافظ على علميته، ولم يخرج إلى عالم القصة البعيد عن اهتمامه.

- (١) د. حسان حلاق، مقدمة في مناهج البحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٤٣.
- (٢) نفس المرجع، ص ٢٧٢.
- (٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦١ م.
- (٤) أبو الحسن البلاذري، فتوح البلدان، منشورات مكتبة الهلال بيروت، ١٩٨٣ م.
- (٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢.
- (٦) ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨١ م.
- (٧) د. حسان حلاق، نفس المرجع، ص ٣٢٦.
- (٨) أسد رستم، مصطلح التاريخ، بيروت، المكتبة القصرية، ١٩٣٩.
- (٩) حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٣.
- (١٠) محمد مصطفى زيادة، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر، القاهرة، ١٩٥٠ م.
- (١١) جمال الدين الشيال، التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٥٨ م.
- (١٢) محمد أحمد أنيس، مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني، القاهرة، ١٩٦٢ م.
- (١٣) فريدريك أنجلز، التفسير الاشتراكي للتاريخ، ترجمة راشد البراوي، القاهرة، ١٩٤٧ م.
- (١٤) جفري باركلو، الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية، ترجمة: د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت، ص ٢٥٥.
- (١٥) د. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، التاريخ: تاريخه وتفسيره وكتابه، الدار السودانية لكتب الخرطوم، ١٩٩٩.
- د. حسنين محمد ربيع، محاضرات في علم التاريخ، القاهرة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢.
- د. ليلى الصباغ، دراسة في منهجية البحث التاريخي، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٨٩.

- د. محمد عبد الكريم الوافي، منهج البحث والتدوين التاريخي عند العرب، بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ١٩٩٠م.
- د. محمود عرفة، البحث التاريخي، المناهج-الأصول- تحقيق النصوص، دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- د. سيد علي الناصري، فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه، القاهرة، ١٩٨٢م.
- د. عمر ففروخ، تجديد التاريخ في تعليقه وتدوينه، دار الباحث بيروت، ١٩٨٠م.
- اسماعيل احمد ياغي، مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٩م.
- جي توليه وجان تولار، مهنة المؤرخ، ترجمة د. عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ٢٠٠١م.
- (١٦) د.عاصم السوقي، البحث في التاريخ، قضايا المنهج والإشكاليات، بيروت، دار الجيل، ١٤١١هـ.
- د. عادل غنيم، د. جمال حجر، في منهج البحث التاريخي، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
- (١٧) د. عبد الرحمن بدوي، النقد التاريخي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١٤.
- (١٨) جوستاف لوبون، فلسفة التاريخ، ترجمة عادل زعتر، القاهرة، ١٩٥٤م.
- كولنجرود، فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦١م.
- لويس جوتشلك، كيف نفهم التاريخ، مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي، ترجمة عائدة سليمان عارفو أحمد مصطفى أبو حاكم، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٦م.
- هرنشوف، ج، علم التاريخ، تعليق وتقريب وإضافة عبد الحميد العبادي، القاهرة، ١٩٤٤.
- جوزيف هورس، قيمة التاريخ، ترجمة نسلم نصر، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٧٤م.
- جون شايلد، التاريخ، ترجمة عدلي برسوم عبد الملك، القاهرة، الدار المصرية للكتب، دت.
- إدوارد كار، ما هو التاريخ، ترجمة ماهر وبيار عقل، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٦م.

(١٩) روبرت يانج، أساطير بيضاء، كتابة التاريخ والغرب، ترجمة: أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

(٢٠) Roy Mottahedeh, The Mantle of the prophet: Religion and Politics in Iran, Simon and Shuster, Inc, New York, ١٩٨٥.

(٢١) كينيث كونو، كل فلاحو الباشا، الأرض والفلاح في الدلتا، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(٢٢) خالد فهمي، كل رجال الباشا، الجيش في عصر محمد علي، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣.

(٢٣) روي متحدة، بردة النبي، الدين والسياسة في إيران، ترجمة رضوان السيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

(٢٤) المرجع السابق، ص ١٤٥.

(٢٥) المرجع السابق، ص ٦٧.

(٢٦) المرجع السابق، ص ٢١١.

(٢٧) شخصية حقيقية هي شخصية الدكتور حسين مدرسي، وهو أستاذ وفقه بارع، يعمل أستاذا للشريعة الإسلامية بجامعة برنستون.

(٢٨) روي متحدة، المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢٩) روي متحدة، نفس المرجع، ص ٩٩.

(٣٠) نفس المرجع، ص ٤٥.

(٣١) روي متحدة، نفس المرجع، ص ٢١٥.

(٣٢) روي متحدة، نفس المرجع، ص ١٤١.

(٣٣) روي متحدة، نفس المرجع، ص ٢٣٣.

(٣٤) روي متحدة، نفس المرجع، ص ٢٨.

(٣٥) د. روي متحدة، نفس المرجع، ص ٦٢ إلى ٧٥.

(٣٦) نفس المرجع، ٣٨٠.

(٣٧) روي متحدة، نفس المرجع، ص ٣٩.